7 انتقام الساموراي

وفجأة انتهى حلم الكابتن مكڤاي. قذفه الانفجار الأول خارج سريره بينما رماه الانفجار الثاني على السطح المهتز. وكمعظم الرجال الذين كانوا على متن السفينة، لم يسمع دوي انفجار ثالث، ربما لأنه حدث في آن واحد مع الانفجار الثاني أو لأن هاشيموتو وهيروكوتو تاناكا ظنا خطأ رؤية انفجار ثالث.

فكر مكڤاي بذهول: «يا إلهي، لقد أصابتنا طائرة انتحارية أخرى». واستذكر بقوة الرعب الذي حدث لحظة انقضّت فيها الطائرة الانتحارية اليابانية على السفينة قرب أوكيناوا وأوشكت على إغراقها. ولكن عندما استعاد قواه تدريجياً، أدرك أن لا مجال لوجود طائرة عدوة بالقرب من سفينته التي كانت بعيدة للغاية عن اليابان. ربما ارتطمت السفينة بلغم، وهو أيضاً أمر بعيد الاحتمال، إذ يعرف سفناً كثيرة ارتطمت بألغام دون أن تصاب بأي أذى. إذن، لا بد من أن السفينة أصيبت بقذائف طوربيد. ولكن لماذا لم يحذره أحد بوجود غواصات للعدو في هذه المنطقة؟

نهض مكڤاي وأخذ يتحسَّس طريقه في الظلام دون ملابس عبر سحب من الدخان الحريف، واتجه إلى سدة الربان حيث وجد الملازم أور، الضابط المناوب على السطح.

سأل مكڤاي الضابط: «هل من تقارير عما حدث؟» أجاب أور: «كلا. لقد فقدت كل الاتصالات. حاولت إيقاف المحركات ولا أدري إن كانت الأوامر قد وصلت إلى غرفة المحركات».

وافق مكڤاي على وجوب إيقاف المحركات، إذ بدأت السفينة تميل قليلاً ويحتمل أن المياه أخذت تتسرب داخلها. حاول أور «بجميع الوسائل» الاتصال بغرفة المحركات. ولكن كانت جميع أشكال الاتصالات الكهربائية والصوتية معطلة، حتى إن أور أرسل ساعياً إلى هناك ولكنه لم يعد بعد.

التفت مكڤاي نحو الرائد جاني الذي كان أيضاً في سدة القبطان وأمره بالذهاب إلى جهاز اللاسلكي المركزي (رقم 1) والتأكد من إرسال رسالة استغاثة. يجب أن تذكر الرسالة أن السفينة قد ضربت بقذائف طوربيد مع توضيح خط العرض وخط الطول، «وأننا نغرق بسرعة ونحتاج إلى مساعدة فورية».

لم يكن مكڤاي مذعوراً وإن كان قلقاً، ولكنه كان يتخذ جميع الاحتياطات. جال ببصره من سدة القبطان آملاً العثور على تفسير لما حدث وتقييم الأضرار. لكن كان الجو ضبابياً وأفل القمر ثانية وبالتالي لم يستطع أن يرى شيئاً ولا أن يميّز الأشخاص الذين كانوا

على السطح أو حتى على السدة لدرجة أنه اضطر لسؤال الأفراد عن أسمائهم.

أين كان كيسي مور، المشرف على السطح؟ لا بد أن مور، بصفته الضابط المسؤول عن مراقبة الأضرار، يعرف شيئاً عن الوضع. ولمّا لم يستطع العثور على مور، قفل مكفاي عائداً إلى مقصورته لارتداء ثيابه وكان يهم بالدخول عندما جاء مور مسرعاً نحوه وهو يلهث. لقد جاء لتوه من الأسفل ويالهول ما شاهده هناك من حرائق وفوضى وقتلى وجرحى.

التقط أنفاسه وقال: «لحق بنا ضرر جسيم وإننا نغرق بسرعة». كانت المقصورات الأمامية تنغمر بسرعة ولم يستطع إغلاق الأبواب الكتيمة للماء إذ لم يقبل أحد مساعدته.

سأل مور القبطان بقلق عما إذا كان يريد إخلاء السفينة. ذهل مكفاي، إذ لا يمكن أن يكون الوضع بهذه الدرجة من السوء. أجابه بالنفي إذ لم تنحرف السفينة سوى ثلاث درجات تقريباً، وقال: «لقد أصابتنا ضربة من قبل واستطعنا السيطرة عليها بسهولة ونستطيع أن نفعل ذلك مرة أخرى». وأضاف إنه لم يكن قلقاً البتة وإنه على حد علمه لم يلحق أي ضرر بمؤخرة السفينة. وأمر مور بأن يعود ويحاول العثور على أكبر عدد ممكن من الرجال لمساعدته في إغلاق الأبواب.

انصرف مور وهو في غاية الانزعاج، كما يبدو من محادثته مع

مكفاي، إذ من الواضح أنه كان يشعر بعدم وجود وقت كاف لإنقاذ الأرواح. دخل القبطان إلى مقصورته وارتدى ثيابه على عجل، واندفع عائداً إلى سدة القيادة. إن التخلي عن السفينة عند هذه النقطة أمر غير وارد في ذهنه ولا يمكن لأي قبطان مسؤول إصدار أمر كهذا إلاّ بعد تلاشي كل أمل في أنقاذ سفينته. غير أنه خشي ألاّ تكون قاعة المحركات الرئيسة قد تسلمت الرسالة بإيقاف المحركات. وكان ثمَّة خطر من انجراف كمية هائلة من الماء داخل السفينة إذا كان الضرر كبيراً، مثلما اعتقد كيسي.

بدا أن مصير السفينة يمكن أن يعتمد على التعليمات التي كان يصدرها كبير المهندسين ردمين إلى رجاله ـ هذا إذا كان موجوداً بالفعل في قاعة المحركات.

ولكن لم يكن ردمين هناك إذ بعد أن انتهى من نوبة الخفارة، نزل من سدة القبطان إلى السطح الرئيسي وتوقف في قاعة الطعام حيث التقط شطيرة من اللحم ثم صعد سلماً آخر إلى مقدمة السفينة لزيارة المرحاض. وإذ كان واقفاً يهم بتثبيت زناره، ضرب الطوربيد الأول مقدمة المرحاض واهتز ردمين بعنف بينما ضرب الطوربيد الثاني المرحاض من الأسفل. سمع على الفور فرقعة اللهب خارج الباب مباشرة. وأحس ردمين بصدمة.

صاح قائلاً: «يا إلهي. لقد علقنا». هل مآل مهنته المزدهرة نهاية مخزية في المرحاض؟ فتح الباب بحذر وإذ أغلق عينيه لحمايتهما من الدخان، تعثر وأطلق صرخة ألم عندما لمست يده اليسرى السطح

المعدني المتوهج من شدة الحرارة. وكانت ألْسنة النيران قد اندفعت قبل ثوان عبر الممر وحولت السطح إلى مشواة في غاية الحرارة.

وقف ردمين على قدميه وهبط سلماً نحو السطح الرئيسي عبر ستار من دخان أبيض انعكس عليه لهيب النار. كان عليه العودة إلى المؤخرة أو إلى غرفة مراقبة المحركات، رغم أنها تقع تحت خط الماء عميقاً في بطن السفينة وهو مكان بالغ الخطورة للمرء أن يكون فيه إذا كانت السفينة على وشك الغرق. لكن لم يعتقد ردمين بأن السفينة ستغرق، وبصفته كبير المهندسين، لا ينوي التهرب من أداء واجبه. وصل إلى السطح الرئيسي وهو يخطو فوق معدات وأسرّة مبعثرة وأثاث منزاح، وسلك طريقه عبر حظيرة الجانب الأيسر من السفينة وهبط إلى غرفة المحركات في مؤخرة السفينة.

سأل الضابط المناوب هناك ماذا سمع من سدة القبطان. جاء الرد: «لا شيء. لا نستطيع الاتصال مع السدّة».

أصبح ردمين شبه يائس. ماذا يريد القبطان منه أن يعمل؟ هل ينبغي أن تواصل السفينة إبحارها؟ هل ينبغي أن تتوقف؟ إذا اتخذ قراراً خاطئاً، قد يعني ذلك موت الطراد إنديانابولس ـ ونهاية ردمين. تبين له أن غرفة المحركات في مقدمة السفينة (التي تزود الجزء الأمامي من السفينة بالكهرباء) لم تعد تولد أية طاقة كهربائية، وأن محركين فقط من محركات السفينة الأربعة لا يزالان يعملان وكان ضغط أحدهما يهبط بسرعة. أصبح ضغط الماء منخفضاً ربما بسبب

انكسار الأنابيب الرئيسة، وبيّن مقياس الانحراف أن السفينة آخذة في الميلان بمقدار يربو على 12 درجة عند الميمنة.

أصبح ردمين في حيرة من أمره. لو أوقف المحرك الوحيد الذي لا يزال سليماً، فهل يتسبب بجعل السفينة هدفاً أفضل للغواصة التي يمكن أن تكون قد ضربت السفينة؟ وإذا كانت المياه تتسرب داخل السفينة، فهل يعجل في موتها إذا واصل السير إلى الأمام؟ أخيراً توصل إلى قرار. بما أنه لم يسمع شيئاً من سدة القبطان، لن ينفذ سوى تعليمات القبطان الأخيرة، ألا وهي الإبقاء على تحرك السفينة. وهكذا أمر ردمين رجاله بتشغيل المحرك السليم المتبقي إلى أقصى حد، وبضخ الزيت من خزانات الجانب الأيمن إلى خزانات الجانب الأيسر من السفينة في محاولة لتصحيح الميلان.

ولكن أخذ هلع الملازم يزداد أكثر فأكثر. كان يشعر دائماً بثقة في النفس وكان على يقين من أن باستطاعته السيطرة على أي موقف. ولكن أخذت الشكوك تراوده الآن، وبخاصة عندما وصل زميل أحد مصلحي المعدات وهو يلهث وتحدث كيف أنه نجا بشق الأنفس من الدمار.

أمر رجاله بالبقاء في أماكنهم وتوجه نحو سدة القبطان وهو مقتنع ظاهرياً بأنه سيعود خلال وقت قريب. ولكن ما إن بدأ في الصعود، ازداد الميلان فجأة بحيث بات من العسير عليه الوصول إلى أعلى السلم. وتساءل عما إذا كان سيصل إلى الجزء الأعلى من السفينة. هل يا ترى نفد حظه أخيراً؟

وجد رجال عديدون آخرون أنفسهم محتجزين في بطن السفينة، من بينهم مجند مشاة البحرية ماكوي وسجيناه والبحارة الذين كانوا يرقدون على الأسرّة المحاذية للزنزانة والذين شاطروا السجينين مقصورة شديدة الحرارة في السطح السفلي تحت الذيل المروحي الشكل. ألقت الانفجارات بالرجال خارج أسرّتهم ونزعت الأسرّة عن ركائزها وانهارت الأنقاض على الضحايا المذهولين.

كان ماكوي مدفوناً مثل الآخرين تحت مزيج من الحديد والخشب والفرش غير أنه جر نفسه متزعزعاً من تحت الأنقاض ونجا بأعجوبة دون أن يصاب بأذى ـ تعثر في الظلام الدامس الذي ابتلع المقصورة بعد أن انطفأت المصابيح الزرقاء الباهتة ـ ماذا حدث؟ وفجأة استذكر مثل الكابتن مكڤاي كابوس أوكيناوا. كانت الطائرة الانتحارية تندفع نحوه بسرعة البرق! ليس مرة أخرى!

زحف ماكوي وسط الأنين والصرخات التي اخترقت سكون الليل إلى أن عثر على مصباح يعمل بالبطارية وأضاءه. حملق في الفوضى الهائلة دون أن يصدق ما رأى: رجال منبطحون تحت الأسرّة المحطمة. بعضهم لا يظهر منهم سوى أطراف ملتوية. غير أن أول ما خطر على بال ماكوي هو إطلاق سراح السجينين اللذين يصرخان بصخب مطالبين بالخروج. سار مترنحاً إلى الزنزانة وفتح القفص وأخلى سبيل الشابين المكسيكيين. ثم قام ماكوي والشابان مع غيرهم من القادرين على السير بسحب الضحايا المحصورة تحت الأسرّة. قبل حدوث الانفجارات، كان ماكوي يلعن الحرارة الشديدة الوطأة،

ولكن ها هو الآن يتصبّب عرقاً في الحرارة الحارقة لسفينة مشتعلة.

وفي غضون دقائق، أخرج الرجال نحو ثلاثين من رفاقهم من تحت الحطام المتشابك، وكان كثيرون منهم يعانون من أطراف مكسورة وإصابات في الظهر، وحملوهم إلى سلم يؤدي إلى مقصورة كبير ضباط الصف في الأعلى. نجح بعض الرجال القادرين في الوصول إلى أمان نسبي، تاركين البقية وراءهم. ولكن معظمهم، بمن فيهم ماكوي والسجينان، شكّل سلسلة بشرية وساعد في تمرير الجرحى عبر السلم الواحد تلو الآخر. ازداد ميلان السفينة حدة نحو الميمنة، وفقد بعض الرجال توازنهم وأخذت الأجسام تهوي إلى الأسفل. وفجأة دوى تحذير من الأعلى يقول: «للأسف، علينا أن نسد الفتحة».

وإذ كان الماء يندفع بقوة داخل السفينة، كان يتعين جعل المقصورات السفلى مانعة لنفوذ الماء من أجل احتواء التدفق وربما الحيلولة دون غرق السفينة. كان لكل ثانية أهميتها. ومع ذلك، كان ماكوي جزعاً رغم فهمه للمنطق القاسي لرئيس ضابط الصف. هل يعني ذلك أنه والآخرين الذين ما زالوا في الأسفل سيدفنون أحياء داخل هذا التابوت؟

صاح قائلاً: «كلا! كلا! انتظروا، هناك عدد قليل آخر».

ولكن ما من أمل كما يبدو. لا بد من التضحية بأولئك الذين لم يتم إجلاؤهم بعد في سبيل إنقاذ السفينة.

كان الدكتور هينز في حجرته الخاصة على ميمنة السطح الرئيسي قد استيقظ للتو واتجه نحو الكوة فوق سريره عندما لمحت عيناه وميضاً أبيض براقاً أضاء سماء الليل. في تلك اللحظة، قذفه الانفجار الأول من فوق سريره ورماه على المنضدة المجاورة للسرير. وبينما كان يحاول جاهداً الوقوف على قدميه، فكر في القصة التي سمعها عن الغواصة أثناء العشاء، ولم يعد الأمر يبدو مسلياً. ثم هز الانفجار الثاني المقصورة وطرحه أرضاً مرة أخرى. قشقشت يداه عندما لمس السطح البالغ الحرارة ولكنه نجح في الوقوف مرة أخرى ليجابه جداراً من نيران كانت تنبعث من خط منفجر كان يمر عبر الغرفة وينقل وقود الديزل.

لم يكن هينز يرتدي سوى سروال بيجامته. تناول سترة النجاة واستدار حول اللهب وركض نحو الباب. ولكن ما إن فتح الباب ودلف إلى الممر حتى سمع ضابطاً في الغرفة المقابلة له يصرخ طالباً منه الحذر. تراجع الطبيب في لحظة أمكنه فيها تجنب وميض هائل من اللهب اندفع عبر الممر رغم أن اللهب سفع شعره وحرق وجهه. ثم سمع انفجاراً ثالثاً وترنحت السفينة سكرى على جانبها الأيمن.

اتجه هينز نحو سلم يؤدي إلى السطح المكشوف الأعلى في مقدمة السفينة ووجد أن ستارة ثانية من نار بيضاء سدت الممر، فاتجه بدلاً عن ذلك إلى قاعة الجلوس المؤدية هي الأخرى إلى السطح العلوي. وما إن دخل القاعة حتى أحس بأنه ولج داخل أتون ولكن

لم يكن ثمَّة سبيل آخر للخروج. ترنح عبر الغرفة نحو باب آخر قبل أن يقع على السطح ويحرق يديه مرة أخرى.

نهض بمشقة واندفع إلى الأمام يبحث عن الباب المراوغ في دخان كثيف ولكنه لم يستطع العثور عليه. كان يختنق ويلهث وأخذ يتعثر بالكراسي والمصابيح وكل التجهيزات التي كانت تملأ تلك القاعة المريحة التي أمضى فيها ساعات طويلة مرحة وهو يدردش مع زملائه ويلعب الورق ويشاهد الأشرطة السينمائية وينصت لدى تناول العشاء إلى القيل والقال عن تخيلات مسلية مثل رؤية غواصة للعدو.

وأخيراً، تغلبت الأبخرة على هينز فانهار على كرسي مريح وهو يشعر بنعاس شديد. علم أنه يوشك على الموت ولكن راوده شعور بالأمان والسعادة ولم يعد يحس حتى بالألم في يديه المحترقتين ـ يدان ربما تعودان لجراح عظيم.

كانت غرفة الملازم ماكيسيك تقع مباشرة تحت غرفة هينز على السطح الثاني. فتح عينيه ووجد نفسه يطير، كما يبدو عبر مجموعة كواكب غريبة حين تهشمت المرآة المركبة فوق المغسلة وتحولت إلى آلاف من النجوم البراقة. خمن على الفور: «إنها غواصة»! لعلها الغواصة التي كان يبحث عنها فريق الاصطياد والقتل. نهض من على السطح مرتدياً فقط سرواله التحتي القصير وقميصه الداخلي، واندفع نحو الممر. كانت الحرارة من الشدة بمكان بحيث تراجع على الفور

داخل غرفته الحالكة المظلمة وأخذ يبحث عن مصباح يدوي. بلّل منشفة ولفها حول رأسه لامتصاص شيء من الحرارة.

خرج ماكيسيك ثانية وخاض في مياه وصل عمقها إلى كاحله وأدرك أنها لا بد أن تكون مياه البحر. هرع إلى السلم وصعد إلى السطح الرئيسي واحترق كفّاه على الدرجات الحديدية أثناء صعوده. أحس بدوار من جراء انعدام الأوكسجين وشعر أن عليه استنشاق بعض الهواء النقي في أقرب وقت وإلاّ سوف ينهار. نظر باتجاه مؤخرة السفينة في الممر الذي ترنح فيه هينز لتوه، وأحس بكآبة حين رأى الدخان واللهب يكتنفان الممر. رجال يركضون ويصرخون وينزلقون على سطح زلق بسبب الزيت الذي كان يتدفق من أنابيب متفجرة. ومع ذلك، فإن الممر الوحيد الذي يعرف أنه يؤدي إلى سطح أعلى مقدم السفينة دون اجتياز جدار من النيران كان عبر قاعة الجلوس القريبة من ذلك الممر ـ وهو الممر ذاته الذي وجده هينز مسدوداً. هل ينبغي له الاندفاع داخل تلك السحب الكريهة الرائحة ويشق طريقه عبر حشد من الرجال المرتبكين؟

شاهد ماكيسيك في الضباب الكثيف مقصورة قريبة كانت محجوزة لموظفي الأميرال سبروانس. كوة! هواء! ادنفع داخل الغرفة ولكنه وجد نافذة الكوة مسدودة. حاول فك الصامولة ولكن دون جدوى. يوجد هناك عادة مفتاح ربط معلق على الجدار لاستخدامه في الحالات الطارئة، ولكن لم يكن موجوداً هذه المرة.

حملق ماكيسيك خارج النافذة في البحر الأسود اللون. واستطاع بصعوبة أن يميز الأمواج المتلألئة تتهادى في الريح. تمنى لو كان باستطاعته فقط كسر الزجاج. كان دوماً يعتبر الهواء النقي الذي يستنشقه من الأمور المسلم بها، أما الآن فهو مستعد لإعطاء أي شيء مقابل استنشاقة واحدة لا غير تملأ رئتيه. كيف يمكنه أن يعيش دقيقة أخرى بدونها! كانت تحيط به النيران والدخان والزجاج تماماً مثل الطبيب هينز.

كان يومان هافنز أحد البحارة الآخرين الذين اتجهوا نحو قاعة الجلوس. في واقع الأمر، كان يفترض به التواجد هناك من أجل الخفارة قبل منتصف الليل. وعندما أيقظه أحد الأشخاص في سريره في حظيرة الجانب الأيسر من السفينة الواقعة في الطابق الأوسط، ألقى نظرة على ساعة يده ـ كانت تشير إلى ما بعد منتصف الليل! كان متأخراً. وما إن قفز إلى سطح السفينة وبدأ في ارتداء ثيابه حتى اهتزت السفينة فجأة بفعل الانفجارات وأحس برشة من ماء البحر تنضح وجهه.

وجد هافنز نفسه في وضع يصعب تصديقه، فعلى الرغم من الموافقة على نقله حيث كان ينتظر وصول الأمر فحسب، ها هو كما يبدو يواجه هجوماً انتحارياً آخر.

هرول هافنز نحو قاعة الجلوس ـ حيث كانت مهمته في تلك الفترة عادة هي المساعدة في السيطرة على أية حرائق قد تنشب في المنطقة. ولكنه لم يصل هناك أبداً، إذ ما إن هبط إلى السطح الرئيسي

حتى صادف الحريق والارتباك اللذين سدا طريق ماكيسيك. كان الرجال يخوضون في مياه البحر حتى كواحلهم وهم يتطلعون بيأس إلى توجيه ما بينما كانت ألسنة اللهب تندلع عبر الممرات.

وفجأة، رأى هافنز العديد من الرجال يخرجون من كوة تنفتح على سطح أدنى، وقد اسودّت وجوههم وأجسامهم من الاحتراق، وتدلى جلدهم من أذرعهم وسيقانهم. ركض نحوهم وساعد في سحبهم عبر الكوة. وفي خضم العويل والأنين، لف الرجل الأول ببطانية وكانت الوحيدة التي استطاع العثور عليها، وحمله إلى حظيرة الجانب الأيسر الأكثر جفافاً والتي تحولت إلى محطة لتضميد إصابات الجرحى. حدق في مشاهد المعاناة البشرية. فقد مات أخوه في بيرل هاربر في أولى معارك الحرب ويبدو الآن أنه قد يلقى مع بقية الطاقم المصير ذاته في واحدة من آخر المعارك ـ بينما أوامر نقله ربما تنتظره في لايته. قيل له إنه يمكنه مغادرة السفينة في مكان ما في المحيط الهادىء، ولكن لم يكن يتوقع أن يكون ذلك في وسط المحيط؟

ليس هذا وقت التأمل في مشيئة الأقدار، إذ كان عليه أن يحضر الرجال الآخرين وأن يعثر على الدكتور هينز كي يخفف من آلامهم.

وبينما كان الدكتور هينز مستلقياً يموت ببطء في قاعة الجلوس، رن صوت أشبه بصوت الأشباح عبر الضباب المائل إلى الحمرة: «يا إلهي، إنني أفقد الوعي»! وعندما خبا الصوت، سقط «الشبح» فوق الطبيب المستلقي على الكرسي المريح. جدّدت الصدمة إرادة هينز

في البقاء حياً. دفع الرجل جانباً وتحامل على نفسه ووقف على قدميه، وكانت أصوات أخرى تخاطبه: «لا تشعل عود ثقاب»!

«افتح كوة. افتح كوة»!

بالطبع! لماذا لم يفكر في ذلك؟ لم يكن ميتاً بعد. كم من الرجال يموتون في الخارج هناك؟ عليه أن يعيش كي ينقذ الآخرين. لكنه أدرك يائساً أن الكوى محكمة الإغلاق، ولن يستطيع فتحها بيديه المحترقتين. غير أنه عندما عرج نحو الجدار المقاوم للحريق وأخذ يتحسس ما حوله، شعر بالسعادة حين وجد إحدى الكوى مفتوحة.

دفع هينز رأسه عبر الفتحة وأحس، بعد أن كان شبه مشوي وهو حي، وكأنه أدخل رأسه في ثلاجة مجمدة. استنشق الهواء بعمق وأخذ رأسه يصفو ثانية. كان يريد مساعدة الآخرين في الغرفة ولكنه كان يعرف أنه سيموت فيما إذا رجع وحاول العثور عليهم. نظر إلى أسفل ورأى كومة من الحطام والورق في الماء الهائج. هل ينبغي له أن يقفز؟ قرّر ألاّ يقفز وقال في نفسه إن الماء سيمتصه ويعيده إلى السفينة لأنه لا يزال عالقاً.

أحس فجأة أن شيئاً من فوقه يلامس وجهه ـ إنه حبل! شد الحبل الذي كان يتدلى من شبكة عوم على سطح أعلى مقدمة السفينة وتبين له أن الحبل كان مثبتاً بإحكام. تلوّى عبر الكوة أشبه بوليد يشق طريقه إلى العالم متجاهلاً الألم الذي كان يمزق يديه وأخذ يتسلق الحبل بوصة تلو الأخرى باتجاه سطح مقدم السفينة. تسلق سلماً إلى السطح

الرئيسي ومنه إلى داخل مركز تضميد الجراح الذي أخبره أحدهم أنه قد أعد في الحظيرة الواقعة على ميسرة السفينة.

وجد هينز زميل رئيس الصيادلة، جون شمويك John Schmuek، يحوم فوق نحو ثلاثين رجلاً مصابين بحروق مروعة، وكانوا يصرخون ويصيحون طالبين تخفيف آلامهم. ولكن لم يجد سوى بضع ضمادات وعلبة واحدة من كبسولات المورفين. أخذ إبرة ووخز أسوأ الحالات ـ المصاب تلو الآخر ـ مانحاً بذلك حياة متجددة لرجال لا يستطيعون البقاء طويلاً على قيد الحياة. وأخيراً، أرهقه الألم إذ لا تزال رئتاه متسممتين من الأبخرة الضاربة إلى الحمرة، فأغمي عليه وتهاوى فوق أحد المرضى.

عندما استعاد هينز وعيه بعد دقيقة تقريباً، أرسل أحد الرجال إلى مستشفى السفينة لإحضار مزيد من المعاونين الطبيين. ولكن سرعان ما عاد الرجل ومعه أنباء في غاية السوء: لقد انغمر المستشفى كلياً بالماء. شهق الطبيب وتساءل إلى متى يمكن أن تظل السفينة عائمة. لا يمكن لهؤلاء الرجال البقاء على قيد الحياة حتى ولو لساعة واحدة في المحيط، حيث مياه البحر تنهش جروحهم، وضماداتهم منقوعة بالماء، وليس من سرير لهم سوى البحر. وإذا لم يغرقوا، سيجذب الدم سمك القرش. ومع ذلك، عليه أن يطيل أعمارهم إن استطاع ذلك لكونه طبيباً.

وهكذا أرسل هينز شمويك لجلب سترات نجاة وذهب هو بنفسه للبحث عن بعض السترات. صعد إلى سطح المدفعية على ميسرة

السفينة ورأى من خلال ضوء القمر الذي انزلق ثانية من وراء الغيوم رجالاً يقطعون أكياساً تحوي سترات نجاة وكانت مدلاة من حاجز إنشائي ويقومون بتوزيعها. ولحسن الحظ، كان هناك ما يكفي من السترات ـ على الأقل لأولئك الذين استطاعوا الوصول إلى هناك ـ إذ إن السفينة كانت قد زودت خطأ بشحنة مزدوجة من السترات. وشعر الطبيب لمرة واحدة على الأقل بالامتنان لحدوث خطأ بيروقراطي فاضح. تناول رزمة من السترات وقفل عائداً إلى المستشفى المؤقت. وباشر، بمساعدة من شمويك، بربط السترات حول المرضى ـ حتى حول الشاب المصاب بحروق بالغة الذي كانت طيات من جلده مدلاة من ذراعيه الممتدتين والذي كان يصرخ راجياً الطبيب بعدم لمسه وعدم لمس ذراعيه.

تضرع هينز إلى الله بأن ينقذ السفينة.

كان الملازم بلوم لا يزال يقضم شطيرته في مركز عمله في مؤخرة السفينة عندما قذفه الانفجار الأول وطرحه على السطح. أحس بقشعريرة حين رأى أَلْسنة اللهب تنطلق من المدخنة الأمامية وظن أن أحد المراجل لا بد وأن انفجر. ثم جاء الانفجار الثاني ـ ربما مرجل آخر. ولكن لم يكن ضابط مراقبة السطح المكشوف القريب من بلوم واثقاً من ذلك.

من خلال سماعات الأذن التي كان يستخدمها بلوم والتي كانت وسيلة الاتصال الوحيدة التي ظلت متاحة، أمر ضابط المراقبة بلوم بإطلاق المدفعية إذا شاهد أي شيء.

جال بلوم ببصره عبر المحيط ومعه مساعداه المجندان، ولكنهم لم يروا من مجثمهم العالي نسبياً سوى امتداد لا نهاية له من فراغ مظلم مدمدم.

وعندما أخذت السفينة تميل، فكر بلوم بأنه يتعين عليه الغوص في ذلك الفراغ اللانهائي ـ ولم تكن لديه سترة نجاة خلافاً للرجلين اللذين كانا تحت إمرته. كانت التعليمات تقضي بارتداء سترة النجاة في جميع الأوقات أثناء المناوبة، ولكن من كان يستطيع أن يتصور أنه سيحتاج إليها بالفعل، إلاّ في حالة إجراء تمرين على كيفية إخلاء السفينة. لذلك أمر أحد الرجلين بالذهاب إلى الأسفل ليحضر سترة نجاة.

ورغم كل شيء، لم يكن بلوم قلقاً في واقع الأمر إذ شكّك في إمكانية غرق سفينة حتى في حالة إصابتها، لا سيما إذا كانت السفينة طراداً بهذا الحجم. واعترف بأنه ما زال لا يعرف سوى القليل عن البحرية، ولكن بكل بساطة لم يجد من المنطقي أن تغرق هذه السفينة جراء انفجار واحد أو انفجارين.

وعندما زاد ميلان السفينة فجأة إلى جانبها الأيمن، خبا التفاؤل الوردي الذي راود بلوم، إذ انزلق كل شيء غير مثبت على السطح على شكل انهيال من المعدات والقمامة ـ صناديق ذخيرة، أسرّة نوم، صفائح فارغة. تساءل إن كان يغط في نومه ويعاني من كابوس أم أن الأمر كان حقيقة واقعة.

أيّاً كان الحال، ومع اشتداد الانحدار، فَقَدَ بلوم ومساعده توازنهما وانزلقا على شكل كومة داخل إحدى الزوايا. لم يسمع بلوم أي أمر بإخلاء السفينة، ولكنه الآن، إذ أخذ يفك نفسه عن المجند، أخذ يفكر فيما إذا كان ثمَّة حل بديل. سيتصل بضابط مراقبة السطح للحصول على توجيه. ولكنه أدرك عدم إمكانية ذلك لأنه كسر سماعات الرأس أثناء انزلاقه، وبات عليه أن يقرّر بنفسه دون غيره ما إذا كان عليه القفز في المجهول الأسود ومتى.

فَقَدَ مجند مشاة البحرية ماكوي كل أمل تقريباً يتيح له أو للآخرين المحتجزين في منطقة الزنزانة الهروب ولكنه سمع فجأة صوتاً يصيح من الكوة طالباً منه إخراج المحتجزين بسرعة.

أخذ ماكوي ورفاقه يدفعون الجرحى الذين كانوا لا يزالون بين أيديهم عبر الكوة ولكن جاء الصوت ثانية يقول: «حسناً، هذا يكفي».

أفلتت السلسلة البشرية فجأة وأخذ الرجال يقفزون بذعر إلى أعلى السلم وكان ماكوي آخر من ألقى بنفسه عبر الفتحة. كان مذهولاً ومنهك القوى ومرتاعاً. كانت صرخات خافتة ممزوجة بأمواج الحرارة والدخان تتصاعد من الأسفل متوسلة: «لا تتركونا! عودوا!».

ولكن دوى صوت إغلاق الكوة بعنف وتبع ذلك صمت مطبق. شعر بالذهول لكون خمسة عشر من الجرحى وفاقدي الوعي قد سدت عليهم المنافذ في قبورهم.

حالما رجع الكابتن مكفاي من مقصورة الطوارىء إلى سدة القيادة على سطح السفينة مرتدياً بزته الكاملة، واجهه مساعده فلين بالقول إن السفينة ستغرق بالتأكيد واقترح إخلاءها.

إذا كان مكفاي قد أحس بالذهول مما أبلغه إياه كيسي مور، فإنه شعر الآن بصدمة لأنه كان قد أقنع نفسه بأن مور ربما بالغ في وصف الوضع وبأنه يمكن إنقاذ السفينة إلى حد ما مثلما حدث في أوكيناوا. ولكن ها هو ضابطه التنفيذي، الذي يحظى رأيه باحترام جم، يخبره بوجوب إخلاء السفينة. شعر بأن أسوأ كابوس يمكن لقبطان السفينة أن يواجهه قد أمسى حقيقة، إذ عليه أن يتخلى عن سفينته حتى دون أن يتمكن من خوض معركة. ما من أحد سيصدق أنه لم يكن على خطأ حتى وإن لم ينذره أحد بوجود خطر من غواصات، بل قد أخبر بعدم وجود أي خطر.

وأخيراً، لفظ مكفاي أصعب كلمات تفوه بها قط في حياته: «أبلغ الجميع بإخلاء السفينة».

أجاب فلين: «سمعاً وطاعة سيدي». ولما كان من المتعذر إجراء أي اتصال من سدة ربان السفينة، أمر الملازم أور الذي كان حاضراً إدوارد كيز، معاون عريف الملاحين في الخفارة، بالذهاب إلى الأسفل والتنبيه على جميع الرجال بالقدوم إلى أعلى والاستعداد لإخلاء السفينة. ثم أخبر أور نافخ البوق دونالد ف. ماك Donald F. Mack بالتهيؤ لإطلاق ذلك النداء. ولكن ماك لم يطلقه أبداً، لأن مكفاي، في خضم الارتباك الذي تلا ذلك، لم يصدر الأمر قط إلى

أور بذلك. وعندما أخبر أور ماك لاحقاً بأن الوقت قد حان لإخلاء السفينة، ادعى نافخ البوق بأنه فهم أن المقصود من ذلك هو أن يذهب شخصياً إلى حافة السفينة حيث ألقى ببوقه أرضاً وقفز إلى البحر.

شكا مكڤاي إلى أور أنه لم يستطع أن يحدد ما إذا كان نداء الاستغاثة الذي طلب من الملاح [المقدم جاني] التأكد منه قد أرسل بالفعل. ومن الغريب أن جاني لم يرجع من الأسفل وقال مكڤاي إن إبلاغ جهة ما بمكان وجود السفينة أمر أساسي للغاية. لذلك قرر مكڤاي الذهاب بنفسه إلى غرفة الاتصالات المركزية لمعرفة ما إذا تم إرسال نداء الاستغاثة ولتفقد جزء من السطح الرئيسي الذي قال البعض إنه انشطر. أراد أن يعرف سبب غوص مقدم السفينة بمثل هذه السرعة.

وقال في فترة لاحقة إن ما من أحد أبلغه بأكثر من كون السفينة لحقت بها أضرار جسيمة. كما لم يخبره أحد أن أول أربعين قدماً من مقدم السفينة قد انفصل وأن أطناناً من المياه كانت تتدفق داخل السفينة بشكل سريع للغاية لأن السفينة ظلت تتحرك إلى الأمام.

وإذ كان مكڤاي يهم بالذهاب إلى غرفة الاتصالات المركزية، هرع إدوارد كيز نحوه وأبلغه عن الجهد الذي بذله للطلب إلى الرجال الذين كانوا في الأسفل بالصعود إلى الأعلى. وأضاف أنه أبلغ الرجال الذين كانوا في مؤخرة السفينة (دون أن يذكر أيضاً أنه ينبغي عليهم الاستعداد لإخلاء السفينة حسب الأمر الذي صدر إليه)، ولكنه لم

يبلغ الرجال الذين كانوا في مقدمة السفينة، إذ لم يكن بوسعه تخطي الحريق المندلع في المستشفى والدخان المتصاعد في قاعة الطعام رقم واحد.

ولم يكن بوسع مكڤاي عمل شيء سوى أن يواسي نفسه بالأفكار التي راودته عن الهجوم الانتحاري الياباني في أوكيناوا حيث الرجال، فور إحساسهم بالكارثة، هرعوا جميعاً إلى ظهر السفينة طواعية. لذلك سيفعل الرجال الشيء نفسه الآن ـ من يستطيع منهم ذلك. ثم أسرع مكڤاي إلى مقصورة الطوارىء المخصّصة له لارتداء سترة النجاة المصنوعة من الألياف الحريرية قبل نزوله إلى غرفة الاتصالات المركزية للتأكد من وصول الغوث قريباً.

غمر القائد هاشيموتو وطاقمه في هذه اللحظة العظيمة فرح عارم مشوب بالقلق، إذ يحتمل أن يكون طراد بمثل هذه الأهمية يبحر برفقة حماية، ولذلك توقع الجميع سماع دوي انفجار عبوة أعماق ناسفة من مدمرة للعدو في أية لحظة، رغم معرفة هاشيموتو أن هذا أمر بعيد الاحتمال منطقياً لأن السفينة الهدف كانت قريبة للغاية من غواصته ويمكن أن تلحق بها أضرار إضافية من جراء انفجار عبوة ناسفة كهذه.

في الواقع، عندما سمعت عدة انفجارات قوية عقب الضربات الفعلية، أخذ أفراد الطاقم يصيحون: «هجوم بعبوة أعماق ناسفة» وكان على هاشيموتو أن يطمئنهم بأن تلك الانفجارات لم تكن سوى انفجار الهدف الذي أصابوه وبأنه لم تظهر على منظار الأفق أية سفن أخرى. ومع ذلك، كان مضطرباً بسبب استمرار ظهور صورة السفينة

في منظار الأفق. إنها لم تغرق، حتى الآن على الأقل. ولذلك جدّد رجال الكايتن الآن حملتهم للموت ببسالة.

صاحوا قائلين: «بما أن العدو لم يغرق، أرسلنا».

بيد أن هاشيموتو استمر في المقاومة، إذ قد تغرق السفينة قبل وصول رجال الكايتن إليها. وكما روى في وقت لاحق أنه في حال إطلاق رجال الكايتن، فإن ذلك يعني ذهابهم إلى الأبد. ومن المؤسف المجازفة بفقدانهم سدى.

وحينما أشارت المعدات الصوتية إلى أن السفينة المنكوبة كانت تستخدم جهازها المخصص للكشف تحت الماء، انتاب هاشيموتو قلق من أن تكون السفينة تحاول معرفة مدى غواصته، ولذلك أمر المسؤول عن الدفة بالغوص إلى عمق سبعين متراً وأخبر توشيو تاناكا بالتهيؤ لإطلاق مجموعة ثانية من الطوربيدات غير المأهولة. وبشعور من الارتياح العميق، جهز تاناكا ست قذائف أخرى على منصة الإطلاق. أحس يقيناً أن إصابة مميتة لحقت بالسفينة، ولكن سيضرب مرة أخرى لمزيد من التأكد، حتى وإن كانت السفينة في طريقها إلى الأعماق. لا يستحق هؤلاء «الهمجيون» أية رأفة.

ظن هاشيموتو أيضاً أن السفينة هالكة لا محالة، ولكن إذا لم تغرق قريباً ـ ولم يكن بوسعه المجازفة بالانتظار طويلاً ـ قد لا يستطيع أسر أي من الناجين. كان يريد اثنين أو ثلاثة من الناجين لكي يعرف مقدار أهمية غنيمته ولكي يمكنه، أخيراً، الإثبات للآلهة أنه

أغرق سفينة من أجل الإمبراطور وبالتالي فهو جدير بمكان مبجل في الجنة.

إذ كان الملازم ردمين يخاطر بالصعود من قاع السفينة بعد مغادرة قاعة المحركات الرئيسة، بدا له أن السماء ليست أبعد من برج الملاحة على ظهر السفينة. ومع كل خطوة كان يخطوها إلى أعلى عبر أزل رهيب، كانت السفينة تزداد انحرافاً نحو الميمنة، ومع كل انحراف جديد تقريباً، كانت قدمه تزل على درجات السلم الحديدية وهو ممسك فعلياً بيد واحدة لأن يده الأخرى تصلبت بسبب الحروق.

حين وصل أخيراً إلى السطح الذي يقع مباشرة تحت السطح الرئيسي، وجد رجلاً في قاعة الطعام رقم 2 يحاول استخدام هاتف صوتي. لعله يستطيع الآن الاتصال بالقبطان ليعرف ماذا ينبغي له أن يفعل.

سأل ردمين الرجل عما إذا كان يستطيع الاتصال بأي كان. وجاء الرد أنه لا يمكنه الاتصال سوى بقاعة المحركات.

قطب الملازم حاجبيه، وسأل الرجل عما إذا كان يعرف حالة مقدمة السفينة. وجاء الرد نفياً. زاد تجهم ردمين، ولكنه مع ذلك لا يمكنه أن يصدق أن السفينة في طريقها إلى الغرق ـ إلى أن واصل صعوده وترنحت السفينة ثانية، هذه المرة بدرجة ميلان لا يقل عن ثلاثين درجة. سدة ربان السفينة؟ سقطت السماء فجأة إلى مستوى

السطح الرئيسي. كان عليه الوصول فوق خط الماء أو بدا الآن أن الترقية المرتقبة لن تساوي شروى نقير.

وأخيراً اندفع الملازم إلى السطح الرئيسي ولكن في القسم المحصور حيث لا يمكنه التخلي عن السفينة إذا لزم الأمر. ومالت السفينة الآن بانحدار شديد بحيث أصبح السطح منزلقاً فولاذياً لكل شيء غير مثبت بمسامير لولبية. إذا حاول الانزلاق، لربما تسحقه المعدات المتساقطة. وبالتالي، حاول الزحف إلى أعلى جانب السفينة الأيسر، ولكنه استمر في الانزلاق نحو الأسفل إلى أن تمسك أخيراً بقطعة ملحومة كهربائياً ناتئة من حاجز إنشائي.

في هذه اللحظة، تدحرجت السفينة فعلياً على جانبها ووجد ردمين نفسه معلقاً في الهواء وكأنه مدلى من نافذة إحدى المباني. إذا وقع، سيهبط عمودياً على حاجز إنشائي في منتصف السطح، ويقتل نتيجة السقوط أو يغرق في المياه التي ستغمر قريباً ميمنة السفينة. وكان على يقين من أن هذه هي النهاية. الوداع يا ترود.

وفجأة، رأى أربع أسطوانات أوكسجين مربوطة بحاجز قريب. أصبحت الآن في وضع شبه أفقي بعد أن كانت في وضع عمودي. لو أمكنه التأرجح من أسطوانة إلى أخرى والوصول إلى آخر أسطوانة، سيكون بوسعه القفز إلى الجزء المكشوف من السطح ثم يذهب إلى الحافة.

أمسك ردمين بالأسطوانة الأولى بيد واحدة دون أن يجرؤ على

النظر إلى أسفل. تأرجح ببطء إلى الأسطوانة الثانية أشبه بلاعب جمباز على القضبان. وبقوة عزيمة محضة، تجاهل الألم المبرح في يده المحترقة، وباتت كل أسطوانة تحدياً سامياً بالحياة أو الموت بينما كان جسده المتألم والمتصبّب عرقاً يكافح عبر الهواء الضبابي. سوف ينجح ـ لم يبق له سوى أسطوانتين. أحس بيده تنزلق. بقيت أسطوانة واحدة. وباندفاعة أخيرة، أمسك بالأسطوانة وانقضّ على ما كان سابقاً السطح العمودي لحاضنة مدفع على السطح المكشوف. أجل أيتها السماء!

ثم نزل إلى الماء الآخذ في الارتفاع وكان في غاية الامتنان لدرجة أنه أدرك بالكاد أنه لم يكن يرتدي سترة نجاة. ولكنه شعر أيضاً بوخزة ذنب، إذ لا يزال رجاله في قاعة المحركات. لم يعتقد أن السفينة ستغرق وبالتالي لا يمكن توجيه اللوم إليه على التخلي عنهم. ومع ذلك، سنحت له الفرصة ليكافح من أجل البقاء حياً بينما لم تسنح لرجاله مثل تلك الفرصة.

سمع الملازم ماكيسيك صوتاً وهو يختنق في الأبخرة التي كانت تغلي على السطح الرئيسي أشبه بما سمعه الدكتور هينز حين كان «يموت» في غرفة الجلوس.

«هل من أحد يريد الخروج؟».

صاح ماكيسيك: «أجل، هنا!».

كان قد ترنح لتوه خارج الحجرة الخاصة ولكنه كان أقل حظاً من

الدكتور هينز إذ وجد الكوى مسدودة. ورأى من خلال بصيص انقشاع في الضباب رجلاً واقفاً قرب الباب المؤدي إلى مخزن بارود المدافع. قال الرجل: «أخرج من هنا».

انحرف الملازم إلى داخل الغرفة ثم زحف عبر فتحة وصعد سلماً مؤدياً إلى حجيرة مؤشر البرج رقم 1 وخرج إلى السطح المكشوف في أعلى مقدمة السفينة. تهاوى على ركبتيه وهو يشعر بدوار نتيجة الدخان والأبخرة وأخذ يستنشق الهواء النقي بشهقات قصيرة مرتجفة. كان بمفرده، إذ إن البحار جيمس نيوهول James Newhall الذي كان يعمل في البرج عاد لإنقاذ رجال آخرين عالقين في الأسفل.

صمّم ماكيسيك الآن بعد نجاته على الانضمام إلى الجهد المبذول لإنقاذ الرجال. كان في جزء السفينة الأمامي والمياه ترتفع سريعاً، وبخاصة أن مقدمة السفينة قد غاصت واختفت. كانت النيران متأججة في الغرف السفلى وقد تلتهم أكثر من مئة رجل، بمن فيهم جميع معاوني رئيس الخدم، وجميع مشاة البحرية تقريباً، ومعظم الضباط البحريين. يتعين عليه المساعدة في إنقاذ أولئك الذين لا يزالون أحياء في الأسفل.

نهض ماكيسيك بصعوبة رغم أنه لا زال يشعر بالدوار ودنا من مجموعة رجال بالقرب منه يتراوح عددهم بين 15 و20 رجلاً كانوا يتحركون على غير هدى وغير متأكدين مما يجب فعله. ولما لم يشاهد أي ضابط، تولى المسؤولية بنفسه.

قال لهم: «لنحضر بعض سترات النجاة ثم نحضر خرطوماً ونحاول السيطرة على الحريق في الأسفل».

قاد ماكيسيك الرجال إلى خزانة باتجاه مؤخرة السفينة حيث كانت توجد سترات للنجاة. وعندما ارتدى جميع أعضاء المجموعة السترات، أخرجوا خرطوم إطفاء الحريق من خزانته وأدخلوه في فوهة في ميمنة السفينة قرب مقصورة القبطان الرئيسة. ولكن لم تخرج من الفوهة نقطة ماء واحدة، إذ إن الخط الرئيسي لإطفاء الحريق كان مكسوراً ولم يكن ثمَّة أي ضغط.

صاح ماكيسيك طالباً من الرجال إهمال الخرطوم والتركيز على إخراج الرجال من هناك.

نجح الرجال في إخراج العديد من البحارة المحترقين عبر الكوة ولكن استمر ميلان السفينة بحدة وسرعان ما أصبحت عملية الإنقاذ شبه مستحيلة. وتعين سحب رجل غير قادر على السير بواسطة حبل من جانب السفينة الأيمن الذي أصبح على مستوى خط الماء تقريباً، إلى جانب السفينة الأيسر المرتفع إلى أعلى. وعندما بلغت زاوية الميلان نحو 45 درجة، لم يستطع حتى الرجال القادرون الصعود إلى السطح الزلق باتجاه ميسرة السفينة إلاَّ بشق الأنفس.

كان ماكيسيك يستطيع سماع طقطقة الحريق في الأسفل. وتساءل في نفسه عن عدد زملائه الذين كانوا في الأسفل يحترقون وهم أحياء أو الذين سيغرقون بينما هو عاجز عن إنقاذهم. جاهد للوصول إلى

حبال السلامة قرب البرج رقم 1 عند أعلى ميسرة السفينة ولملم مجموعة الرجال حوله. كان العديد من البحارة الآخرين القريبين منه يحاولون الفرار إلى مؤخرة السفينة لأن جزء السفينة الأمامي، دون مقدمة، كان لا يزال يسير إلى الأمام ببطء بوساطة المحرك الوحيد العامل ومن الواضح أنه سينغمر أولاً. غير أن ماكيسيك لم يستطع أن يرى سبباً يجعل أي شخص يتخلف على متن هذه السفينة الآيلة إلى الفناء.

راح الملازم يجول ببصره حول السفينة الجانحة من خلال ومضات من نور القمر. ها هي سفينته الجميلة ترضخ ببطء وبهدوء وبعظمة لعاديات الحريق والماء وتتلاشى لتصبح أسطورة. وإذ أخذ الماء يدور حول قاعدة البرج، قرر ماكيسيك أن الوقت قد حان لإخلاء السفينة. صاح بالرجال طالباً إليهم التوجه إلى الحافة. تبعه الرجال وتسلقوا فوق حبال السلامة ونزلوا إلى الماء بهدوء عند ميسرة السفينة.

عالج الدكتور هينز مرضاه المصابين بالحروق والمشلولين بكل العزم اليائس، رغم أن الألم الذي كان يشعر به أوشك أن يودي به إلى الجنون. حقن المرضى بالمورفين، وضمد الجراح، وألبسهم سترات النجاة بالسرعة التي تسمح بها أصابعه المحترقة. ولكنه لم يكن يتوقع المعجزات، فالبحر لن ينفلق، وإنما كان ينتظر افتراس الضحايا، لا سيما أشدهم عجزاً.

انقلبت السفينة فجأة وبينما كان هينز يراقب الوضع بهلع، سقط

جميع مرضاه من ميمنة السفينة في البحر. أمّا الطبيب فقد سقط على السطح ولكنه نجح في الزحف إلى أعلى ميسرة السفينة بينما كانت السفينة تتدحرج إلى زاوية تقارب تسعين درجة. ثم جاهد للوصول إلى سطح المجنقة حيث حاول أن يفك بعض قوارب النجاة المربوطة على جانب السفينة، ولكن لم تكن الحبال ومسامير التثبيت في متناول يديه. ومثلما كان عليه الحال في مواضع أخرى على السفينة، ظل الرجال المسؤولون عن قوارب النجاة ينتظرون لفترة طويلة وصول أمر لهم بإخلاء السفينة ولكن دون جدوى. وإذ أصبحت السفينة جانحة على جانبها فعلياً، كاد يكون من المستحيل فك قوارب النجاة. شعر هينز بالهلع إذ بات على رجال الطاقم مواجهة أهوال البحر وليس من شيء يسندهم سوى سترات النجاة.

توقف الطبيب ليستجمع أفكاره وحملق في بحر متململ بدا في هذه اللحظة من الكارثة أشبه بغطاء يكسو الأرض بكثافة. هل من طبيب عانى قط من ضربة أشد؟ هلك جميع مرضاه بكسحة واحدة مفاجئة. لن يراهم ثانية أبداً، وبالتأكيد لن يرى رجل مشاة البحرية ريد Redd، الذي كانت قدمه داخل جبيرة ولم يسمح له بالنزول من السفينة في بيرل هاربر. ومن شأن الجبيرة الآن أن تثبته في قاع المحيط إلى الأبد.

نزل هينز ببطء بمحاذاة جانب السفينة وعبر القعر المدهون باللون الأحمر يرافقه كثير من الرجال الآخرين من بينهم أوثا آلتون هافنز.

لقد آن الأوان لينضم إلى مرضاه. أخذ نفساً عميقاً وخاض في خضم البحر المالح.

عندما استعاد الملازم بلوم وقفته بعد سقوطه في إحدى الزوايا مع مساعده، أمر الرجل، وهو شاب فلبيني، بالاستعداد للقفز في الماء. صعد الشاب فوق إحدى حاضنات المدافع وهيأ نفسه للقفز. سأل الملازم إن كان عليه أن يقفز الآن. أجابه بلوم «ليس بعد». لربما شعر أنه تسرّع بعض الشيء. ومع ذلك، لم يحدث من قبل أن كان على متن سفينة غارقة. كيف يمكنه القول إن كان بالإمكان إنقاذها أم لا. ولما يحين الوقت لكي يقفز الرجل، عندئذ سيأتي دور دونالد بلوم أيضاً. كما لم يعد بعد الرجل الذي أرسله إلى أسفل لإحضار سترة نجاة. وعلى أي حال، لم يسمع شخصاً واحداً يصيح طالباً إخلاء السفينة.

كرر الشاب سؤاله إن كان عليه أن يقفز الآن. وكان الرد: «كلا. انتظر». فقد تحدث معجزة ـ حتى لشخص مثله. ولكن لم تحدث المعجزة. وحين وضع ذراعه فوق الحافة بعد دقيقة وأحس الماء، عرف أن الوقت قد حان، سواء كانت هناك سترة نجاة أم لا.

أمر الشاب بالقفز. قفز الرجل. ثم صعد بلوم بكل بساطة فوق حبال السلامة وقفز في البحر وكأنه يخطو داخل حوض استحمام. إذا كان هذا كابوساً، حسبما بدا له، من الأفضل له أن يستيقظ بسرعة!

كان الملازم توايبل، الذي حل محله بلوم للخفارة في المؤخرة

المكشوفة، قد غادر مركز خفارته للذهاب إلى الأسفل عندما هزته الانفجارات. إذن كان هاجسه صحيحاً بكون مصير الطراد إنديانابولس مشؤوماً. وكلنه ظل يشعر أنه بالذات ليس سيِّىء الطالع لأن الله كان يوليه حماية خاصة، وبالتالي يجب أن يبدي الآن القوة الموهوبة إياه.

وإذ أخذت السفينة تميل، نظر توايبل في البحر ولم يستطع أن يصدق «أننا غرقنا في الماء بفترة قصيرة كهذه. وبدا الأمر وكأننا شطرنا قعر السفينة». اندفع إلى السطح الرئيسي حيث وجد الضابط فلين. سأل توايبل فلين عما ينبغي له عمله. طلب فلين منه الذهاب إلى مؤخرة السفينة والتأكد من أن الرجال قد ذهبوا إلى جانب السفينة المرتفع.

هرع توايبل باتجاه الذيل المروحي وأمر حشود الرجال المذعورين الذين كانوا يركضون في كل اتجاه بالذهاب إلى الجانب المرتفع. وأدرك فجأة أنه لم تكن لديه سترة نجاة وأنه يحتاج إلى بعض الحماية في البحر ـ وتساءل لماذا يترك تدبر جميع الأمور بيد الأقدار. لم يدم هذا القلق طويلاً إذ وجد أمامه وجهاً مألوفاً ـ أحد الرجلين اللذين أدانهما لغيابهما بدون إذن في سان فرانسيسكو. أحس بارتياح لأن شخصاً ما أخرج الرجال من الزنزانة وهو الآن يقف بهدوء على السطح ويقوم بتوزيع سترات النجاة. اقترب توايبل من الرجل من الزنزانة وهو الآن يقف بهدوء على السطح ويقوم بتوزيع سترات النجاة. اقترب توايبل من الرجل وحملق كل منهما في وجه الآخر لفترة وجيزة. ثم ابتعد بلوم ومعه سترة نجاة. وهنا تتجلّى حكمة الله،

إذ إن الرجل الذي أمر بحبسه قد يكون مسؤولاً عن إنقاذ حياته. أقسم بلوم بأن يوصي بمنح الفتى وساماً إن بقي هو على قيد الحياة.

تحمس توايبل بما اعتبره الانبعاث المعنوي للشاب وواصل سيره نحو المؤخرة وهو ينزلق إلى أن وصل إلى الذيل المروحي حيث وجد قرابة خمسمئة رجل، أي ما يقارب نصف عدد طاقم السفينة، متشبثين بحبال السلامة أو يمسك كل منهم بالآخر على عمق طبقتين أو ثلاث طبقات. وعندما كانت قبضة أحد الرجال تفلت من حبل النجاة ويبدأ في الانزلاق، كان الآخرون يتساقطون أيضاً ولكنهم يزحفون ثانية نحو الأعلى ويتمسكون بحبال السلامة. حاقت ببعض الرجال حالة من الهستيريا وهم يصرخون: «إننا نغرق! ماذا ينبغي أن نفعل؟ أين القبطان؟».

كان توايبل جندياً يعي دائماً أهمية الرتب العسكرية. لذلك نظر حوله بحثاً عن ضابط برتبة أعلى لإصدار الأوامر ولكن دون جدوى. إذن أصبح الأمر الآن بيد هارلان توايبل. أدرك أن مهمة إنقاذ حياة نصف عدد الطاقم تقريباً لا تكاد تكون مهمة مجرَّد ملازم فحسب ولكنه كان واثقاً لأن أنابولس قد هيأته لهذا النوع من المواقف. ولعل هذا هو السبب الذي من أجله أرسله الله إلى هناك.

كان مقتنعاً بأنه يجب على الرجال إخلاء السفينة على الفور ولكن هل سيفعل الرجال ذلك دون أمر من سدة القبطان؟ ـ سيما وأنه شعر أن عليه خرق قاعدة بحرية أساسية للبقاء على قيد الحياة ومفادها أنه عند إخلاء السفينة يجب القفز من الجانب المرتفع لأن الامتصاص

الذي قد يسحب المرء إلى الأسفل مع السفينة يفترض أن يكون أقل. وارتأى أن الجانب العالي كان الآن مرتفعاً للغاية وأن الرجال قد يسقطون داخل الدواسر اللولبية أو يقع كل منهم فوق الآخر في الماء.

صرخ توايبل قائلاً: «أيها الرجال، لا يمكن إنقاذ السفينة. لنقفز جميعاً من فوق ميمنة السفينة ثم نسبح بعيداً بأسرع ما يمكن».

تجاهله رجال الطاقم، إذ إن ضابطاً غرَّاً لا يكادون يعرفونه يأمرهم بالانتحار. سمع البعض إدوارد كيز يصيح طالباً منهم التجمُّع على السطح العلوي ولكن لم ترد أية كلمة من سدة القبطان بإخلاء السفينة. كما أن نافخ البوق لم يطلق النداء بإخلائها. إذن لماذا ينبغي لهم الإنصات إلى شخص أقل خبرة بكثير من العديد منهم؟ وإلى جانب ذلك، لم يكن لدى البعض سترات نجاة، بينما لا يستطيع قليل منهم حتى السباحة. ألم تنجُ السفينة من الهجوم الانتحاري الياباني؟ وعلى أية حال، كان الرجال في حالة ارتباك. وقبل ذلك بقليل، عندما أُصيب بعض الرجال بالذعر وأرادوا القفز في البحر، صاح ضابط آخر قائلاً إن السفينة ستنجو وأخذ يلوِّح بمسدسه مهدِّداً بإطلاق النار على أي فرد يحاول القفز. وها هو هذا الضابط يأمرهم الآن بالقفز.

أحسَّ توايبل بالجزع. إنهم بكل بساطة لا يدركون أنه تلقَّى تدريباً رائعاً في أنابولس وأنه يعرف ما يجب عمله إبان الأزمات. إذن لا توجد سوى طريقة واحدة على ما يبدو، وهي أن يقفز هو في الماء

عسى أن يتبعه الآخرون، أملاً أن يحترم الرجال رتبته في نهاية الأمر على اعتبارها «القشة التي يمكنهم التعلُّق بها».

صاح بالرجال قائلاً إنه في سبيله إلى القفز وإن عليهم جميعاً اللحاق به. كانت السفينة قد جنحت على جانبها بالفعل فانحدر توايبل نحو حاجز كوخ الطباخ في مؤخرة السفينة وقفز في الماء. وإذ أخذ يسبح مبتعداً عن السفينة، نظر إلى الخلف وشاهد بارتياح عشرات من الرجال يقفزون ويلحقون به. ولكن قفز بعضهم من الجانب العالي وحدث ما كان يخشاه إذ ارتطموا بداسر لولبي ولقوا حتفهم فرماً أو أصيبوا بجراح بليغة.

أدرك توايبل أن العديد من الرجال سيلقون حتفهم. ولكن حسبما تبيَّن من روح القيادة التي أظهرها، سينقذ بعضاً منهم على الأقل، لو تجمَّعوا حوله فقط وأنصتوا إلى وصاياه ـ التي هي جميعها على أية حال متأصلة في السماء وفي أفضل الكتب المدرسية.

كان أدولفو سيلايا، الشاب المكسيكي ـ الإسباني من أريزونا، أحد الرجال الذين قفزوا من الذيل المروحي. كان قد التحق بالبحرية للفرار من حياة المدينة المحمومة. وكان نائماً في منتصف السفينة على السطح الرئيسي، وينتظر إيقاظه من أجل خفارة الساعة الرابعة صباحاً. لكن ألقى به الانفجار الأول من فوق السطح، أدرك أن هذا لم يكن إيقاظاً عادياً. ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ حسناً، على الأقل، حين أوى إلى فراشه كان مرتدياً ثيابه بالكامل، إذ إن السنوات

الصعبة في بداية حياته قد صقلته، وبالتالي كان متهيِّئاً على الدوام تحسباً لأية مشكلة.

ومن الواضح أن مشكلة ما قد حدثت الآن. عاد بعض الرجال القريبين من سيلايا إلى النوم بلا مبالاة بعد الانفجار وهم على ثقة بأن أحداً غيرهم سيقوم بإصلاح الأضرار. ولكن سيلايا، الذي كان يخامره شعور بحدوث كارثة، لفَّ نفسه ببطانية وانطلق كالسهم في المؤخرة نحو الذيل المروحي، وحتى دون التوقُّف عندما شاهد ألسنة اللهب تسد طريقه إذ دار حولها وحرق ساقيه، وهو يعدو.

كان سيلايا في عجلة من أمره حيث إنه لم يفكِّر في الانضمام إلى مجموعة رجال كانوا قرب الذيل المروحي يحاولون يائسين إلقاء مركب طويل ضيِّق طوله 26 قدماً من فوق السطح كي لا يضطرون إلى التخبُّط في مياه البحر. كان ذلك من حسن حظه، إذ عندما مالت السفينة فجأة إلى جانبها الأيمن، انزلق الغطاء المعدني الذي كان على المركب وطار في الهواء وقطع أحد الرجال إلى نصفين. وفي الوقت نفسه، أفلت المركب من الحبال التي كانت تقيِّده، وانزلق مرتطماً بأحد الحواجز الإنشائية وهرس العديد من الرجال حتى الموت.

أدرك سيلايا فجأة أن سترة النجاة العائدة له موجودة في مقصورة نومه في الأسفل وكان يهمُّ بشق طريقه عبر الحريق الهائج لجلبها عندما صادف رفيقاً له يدعى سانتوس بينا Santos Pena وكان يعرفه من توسون Tueson. حذَّره بينا بعدم النزول إلى الأسفل وإلاَّ لن يعود أبداً وطلب منه البقاء معه. وبما أن بينا كان مرتدياً سترة النجاة،

يمكنه أن يمسك بسيلايا فوق الماء إلى حين وصول الغوث.

ركض الرجلان إلى الذيل المروحي وشاهدا الكثير من البحَّارة يخلون السفينة مقتدين بما فعله توايبل. ولكن على عكس توايبل، قرَّر الرجلان القفز من فوق الجانب العالي تطبيقاً لما تعلَّماه. حدَّق سيلايا في مياه البحر المزبدة وبدت له وكأنها حوض سباحة كبير في حرارة الصيف ودافئة أيضاً ـ ثمانون درجة فهرنهايت تقريباً. وعلاوة على ذلك، فهو سبَّاح جيِّد ورياضي رائع. إذن لن يكون الأمر سيِّئاً للغاية. وكان صديقه يذكِّره بمدينة توسون التي تعج بالمباني الخرسانية وحيث الناس في كل مكان وحيث لا يوجد فراغ ولا حتى حقل يمكنه أن يدرِّب فيه حصاناً على الجري. لا عجب أنه قد التحق بالبحرية. ولكن في تلك اللحظة بالذات، تمنَّى لو كان في توسون..

صرخ سيلايا: «حسناً، هيَّا بنا نقفز».

ربت بينا على جانب السفينة بحنان وأشار إليها بكنية تحبُّب قائلاً: «وداعاً يا إندمارو Indamaru»، ثم قفز في البحر من علو ثلاثين قدماً. وتبعه سيلايا على الفور ـ وارتطم بشيء ما عندما وصل إلى الماء.

فكَّر: «يا إلهي، لا بدَّ أنه بينا». نادى صديقه بالاسم ولكن ما من مجيب. لقد قتل صديقه! وكان محاطاً برجال يصرخون، ويلهثون، ويئنون، ويصلُّون، ويسبحون، ويشقُّون طريقهم في الماء. ولكن كان سيلايا وحيداً الآن، مثلما كان على الدوام.

كان من بين الذين قفزوا في البحر كذلك غايلز ماكوي Giles Mccoy الذي شقَّ طريقه للتوِّ إلى أعلى مقدم السفينة بعد أن نجح بمشقة في الخروج من غرفة الزنزانة في الأسفل. اختطف سترة من كيس من قماش القنَّب كان قد انتزع من حاجز إنشائي. وإذ دسَّ إحدى ذراعيه عبر السترة، تدحرجت السفينة. ونجح في الزحف إلى جانب السفينة والغوص في الماء، ولكن ظلَّت ذراع واحدة فقط داخل السترة.

كان عازماً على البقاء حيّاً لدرجة أنه سمع بمشقة صيحات الرجال وهم يقفزون في الفراغ، وارتطام الأشياء بالحواجز الإنشائية، وأنين سفينة محتضرة وطقطقتها وصفيرها. ولكن هل سيكون في استطاعته قط أن يطرد من دماغه صرخات الرجال الجديرة بالشفقة الذين اصطادهم القدر وسيرقدون إلى الأبد في قبر كتيم للماء في قعر البحر؟

ارتدى الكابتن مكڤاي سترة النجاة وغادر مقصورة الطوارىء الخاصة به واتجه إلى غرفة الاتصالات المركزية في الأسفل للتحقُّق من إرسال إشارة استغاثة. وفي تلك اللحظة، اتجه نحو صديقه القديم، الكابتن كراوتش Crouch وبدا شارد الذهن وسأله وهو يتمتم إن كانت لديه سترة نجاة إضافية، لأنه اندفع بعد الانفجارات خارج مقصورة القبطان الاعتيادية التي كان يقيم فيها لمعرفة ما حدث وترك سترته بداخلها. أجابه مكڤاي بأن لديه واقية نجاة تعمل بالهواء المضغوط.

قفل مكڤاي عائداً إلى حجرته الخاصة والتقط الواقية وناولها إلى أحد البحارة وطلب منه أن ينفخها من أجل كراوتش. يجب عليه الاهتمام بزميل الدراسة القديم الذي أقنعه بالقدوم على هذه الرحلة بصفة راكب دون أن يتخيَّل أبداً أن الرجل سيخاطر جدِّياً بحياته. رأى القبطان في كراوتش جزءاً من ماضيه هو ـ تلك الأيام المجيدة في أنابولس عندما كان يحلم بتحقيق حلم والده بأن يصبح هو أيضاً أميرالاً وربما قائد أسطول. ودَّع مكڤاي صديقه على عجل وغادر إلى غرفة الاتصالات المركزية. قد تعتمد حياة جميع رجاله على ما سيجده.

في واقع الأمر، كان بإمكان القبطان توفير العناء على نفسه إذ إن مشغلي أجهزة الراديو لم يكونوا متأكِّدين ما إذا كانت إشارة الاستغاثة قد أُرسلت بالفعل. فالضابط جاني Janney لم يصل أبداً إلى غرفة الاتصالات المركزية كما أن الرجل الذي أرسله الملازم أور Orr أصلاً إلى هناك ربما لم يصل في الوقت المناسب، إذ إنه هرع مع رسالته في اللحظة التي كان مشغلو الراديو يغادرون الغرفة وهم يحاولون الهروب من الدخان الكثيف. استدار مشغلو الراديو وخاضوا في الضباب لإرسال إشارة الاستغاثة باستخدام جهاز إرسال موجود في غرفة الاتصالات رقم 2 المجاورة. استعان مشغل جهاز اللاسلكي بالنور الخافت لمصباح وَمَضي وظل ينقر على الجهاز، وأوضحت جميع المؤشرات في غرفة الاتصالات رقم 2 أن الإشارة قد أرسلت بالاستعانة بالطاقة الكهربائية الآخذة في التضاؤل في الغرفة الواقعة بعد

قاعة المحركات. وفي الوقت نفسه، بعث مشغل آخر في غرفة الاتصالات رقم 2 رسالة مماثلة على تردّد مختلف وأكدت العدادات إرسال الإشارة.

ولكن هل ألحق الانفجارات أضراراً بخطوط الإرسال؟ هل سقطت الهوائيات؟ حتى لو خرجت الرسالة، هل كان هناك من يستمع؟ ولما كانت السفينة تغرق بسرعة، لا يمكن إعادة الرسالة سوى لمرات محدودة.

حاول الكابتن مكفاي يائساً الوصول إلى غرفة الاتصالات المركزية ولم يكن يدري بالجهود التي كانت تبذل لإرسال إشارة الاستغاثة. وما إن وطأت قدمه الدرجة الأولى من السلم المؤدي من سدة الربان إلى الأسفل، حتى انحرفت السفينة فجأة إلى ميلان يقارب 25 درجة ولم يستطع الوصول إلى سدة الإشارة الواقعة في الأسفل مباشرة إلاّ بالتمسك بقضبان السلم. ولما ازداد الميلان، زحف إلى سلم آخر واستمر في النزول وتوقف عند سطح الاتصالات عندما شاهد بعض البحارة على وشك الذهاب إلى حافة السفينة دون واقيات نجاة. من المؤلم بما فيه الكفاية أن يضطر الرجال لإخلاء السفينة، لذلك لم يستطع السماح لهم، بالقفز إلى حتف شبه مؤكد. صاح بالشبان: «هناك شبكة عوم على المدخنة رقم 1 ـ أحضروها! لا تقفزوا في الماء ما لم يكن لديكم شيء يسندكم!» وأضاف بتفاؤل لم يتمكن من إخفائه: «ينبغي أن تظل السفينة في وضعيتها لفترة تكفي لجلب شبكة العوم».

وبعد ثوان، انحرفت السفينة إلى حوالى تسعين درجة.

قفز مكڤاي إلى سطح أعلى المقدمة وصعد جاهداً إلى حافة السفينة وأخذ يسير باتجاه المؤخرة. لم يستطع تصديق ما يحدث إذ في أقل من 15 دقيقة، كانت سفينته تعوم على جانبها أشبه بحوت يحتضر. ولكن لن يتخلى عن السفينة ولا يستطيع ذلك. غمره خيال جامح. قد يمكنه حتى الآن إنقاذ السفينة مثلما فعل في أوكيناوا. ولكنه كان في غاية الإرهاق. لماذا لا يجلس وينتظر بزوغ الفجر وعندئذ يمكنه أن يقيّم الوضع على نحو صحيح ويقرّر ما يجب عمله. أراد أن يظل حياً كي يعانق زوجته لويز مرة ثانية ـ ولكن إذا غرقت السفينة تحته، سيظل يُذكر على الأقل كقبطان غرق مع سفينته، ويكون رجلاً جديراً بحمل اسم والده.

وفجأة ضربت مكڤاي من الخلف موجة عاتية، ولدتها المقدمة الغارقة على ما يبدو وكأنها ذراع إلٰهية وكسحته في البحر.

كان الكابتن هاشيموتو محتاراً ومرتبكاً. وإذ كانت غواصته تبحر تحت سطح الماء بأقصى سرعة للتمكن من المراقبة الدائمة، اختفى من منظار الأفق كل أثر لسفينة العدو. هل أغرق السفينة أم أنها استطاعت الفرار؟ لا بد وأنه قد أغرقها إذ لم تكن لتستطيع أن تناور وتختفي عن الأنظار بمثل هذه السرعة بعد أن رأى ثلاثة طوربيدات ترتطم بها. ولكنه بحاجة إلى دليل. عليه العثور على بعض الناجين واستجوابهم.

ولكن هل لديه وقت لذلك؟ قد تستجيب سفن عدوة أخرى لنداء الاستغاثة وتصل قبل أن تتمكن غواصته من الغوص إلى الأمان. وهكذا، بعد نحو ثلاثين دقيقة تحت الماء، صعدت الغواصة 58 - ا، إلى مستوى تحت الأمواج مباشرة، وحملق هاشيموتو عبر منظار الأفق مرة أخرى، ولكن ما من أثر للسفينة أو لأي ناجين.

بعدئذ صعدت الغواصة إلى سطح الماء ووقف هاشيموتو على سطحها، وبرفقته توشيو تاناكا وهيروكوتو تاناكا وأخذوا يرقبون البحر بمناظيرهم بينما كانت الغواصة تجوب المنطقة. كان نصف القمر لا يزال يشع وإن كان عبر ستارة رقيقة من السحاب، ولكنهم كانوا يأملون سطوع ما يكفي من الضوء للكشف عن وجوه العدو.

وحين برز القبطان مكڤاي فجأة على سطح الماء وهو يلهث، نظر إلى أعلى ويا لهول ما رأى. كانت الدواسر اللولبية، أحدها كان لا يزال يدور، تحوم مباشرة من فوق بينما برزت مؤخرة السفينة خارج المحيط أشبه بأحد وحوش ما قبل التاريخ على وشك الغوص في الأعماق. وكانت مجموعات من الرجال المثيرين للشفقة لا يزالون متشبثين بحبال النجاة، ووقف بعضهم على ريش الدواسير الخامدة.

ظلت السفينة المحتضرة في هذه الوضعية لعدة ثوان مرعبة وكانت صيحة الرجال الذين لا يزالون عالقين على السطح تمتزج بارتطام المعدات المتهاوية. اقتنع مكڤاي عندئذ بأن السفينة ستسقط فوقه. وها هو الوحش يوشك على التهام سيده. أخذ يشهق برعب

وفكر بأن هذه هي نهايته. ولكن امتزج شعوره بالرعب بإحساس غريب من الارتياح، لأن القرار بالنجاة أو الغرق هو بيده كما يبدو له. وإلى جانب ذلك، فكّر: «سيكون من الأسهل بكثير لو غرقتُ إذ لن أضطر لمواجهة ما أعرف أنه حاصل بعد هذا».

كان رد فعل مكڤاي المفاجىء هو البقاء حياً وأخذ يسبح مبتعداً عن السفينة أشبه بنملة تسرع في الابتعاد عن قبضة عنكبوت. بعد ثوان، أحس برشة من الزيت الحار والماء خلف عنقه. استدار ليرى الوحش يغوص نهائياً ويختفي في الأعماق السوداء ويصدر حفيفاً أرسل أطناناً من الماء تساقطت كالشلال فوق القبطان، وأكثر من ثمانمئة رجل انقطعت بهم السبل معه في بحر لجي لا نهاية له.

غرق مع السفينة ما يقرب من أربعمئة شخص، من بينهم الضباط فلين وجاني ومور وأور، والكابتن كراوتش زميل الدراسة القديم لمكڤاي في أنابولس. بقي مكڤاي حياً. ومع ذلك، فإنه بالمعنى الروحي قد غرق مع سفينته إذ كان مسؤولاً عن الطراد وها هو قد ولى الآن ويرجح أن يلحق به الناجون.

وفجأة، رأى بعض الرجال وميضاً غير واضح من الأنوار في الأفق. خمنوا أن غواصة يابانية تتجه نحوهم للقضاء عليهم قبل أن يبتلعهم البحر.

بالنسبة إلى توشيو تاناكا، قد تكون هذه هي لحظة الثأر السامية. لو شاهد أياً من الناجين، سينصح القائد هاشيموتو بقتلهم جميعاً

بالمدافع الرشاشة. ولكنه لم يكن متأكداً تماماً من موافقة هاشيموتو على ذلك فقد كان هاشيموتو أكبر سناً وأكثر تحفظاً وأقل جرأة منه إذ كل ما كان يصبو إليه الرجل هو الحصول على عدة شهود على أن يترك الباقين على ما يبدو لتلقطهم سفن العدو (ادعى هاشيموتو في وقت لاحق أن هذه كانت نيته). ولكن شعر توشيو تاناكا أنه يمثل الروح الحقيقية للقضية اليابانية ـ حتى وإن كانت قضية خاسرة، إذ يتعين على رجل الساموراي أن يثأر سواء كانت القضية خاسرة أم لا.

أخذ تاناكا، شأنه شأن الآخرين، يبحث ببالغ الدقة في الأمواج عن لمحة لظل بشري ولكن دون جدوى. وأخيراً، بعد أن طافت الغواصة المنطقة مرة واحدة، كان الملاح هيروكوتو تاناكا يعلم أن هاشيموتو مثله هو، كان يخشى أن يجدهم العدو، ولذلك أمر بأن تتوقف الغواصة عن الطواف وأن تتجه إلى الشمال الشرقي ـ وهو قرار وافق عليه هاشيموتو بتردد، ولو على حساب معنويات بعض أفراد الطاقم. لم يكن توشيو تاناكا الوحيد الذي خاب أمله ولكن أحس رجال الكايتن بالمرارة بشأن العملية بكاملها.

واجه أحد رجال الكايتن هاشيموتو والدموع في عينيه، إذ كيف له أن يحرمه من فرحة نسف سفينة قتال وبالتالي تحقيق أغلى حلم لديه. لماذا أهدر الطوربيدات الاعتيادية؟

حاول هاشيموتو تهدئة الرجل قائلاً له إن لا داعي للقلق، إذ هناك مفترقات طرق أخرى في الطريق إلى الوطن وبالتالي ستسنح له

فرص أخرى. وطلب منه أن يكون شجاعاً وألاّ يكون خائفاً من العيش إلى هذا الحد.

كانت تعصف بالقائد انفعالات متضاربة ـ كان يشعر بفرحة عارمة لإغراقه أخيراً سفينة كبيرة من أجل الإمبراطور، ولكن كانت تنتابه فكرة مجرد احتمال أن تكون السفينة قد نجت وأنه فشل مرة أخرى. حاول طرد هذه الفكرة من ذهنه. ولكي يثبت لنفسه أن السفينة التي أغرقها كانت حتماً سفينة قتالية، تفحص بحماس ألبوماً يحوي صوراً لسفن حربية أمريكية. تمنى لو استطاع العثور على سفينة واحدة فقط تشبه هدفه ولكن دون جدوى. حسناً، لا داعي للقلق، إذ أعتقد هو وهيروكوتو أنها سفينة حربية. وهكذا، حين غاصت الغواصة ثانية وكانت على مسافة زهاء ثلاثين ميلاً من مسرح المعركة، ناول مشغل اللاسلكي رسالة رمزية لإرسالها على تردّد قياسي إلى مقر القيادة البحرية في طوكيو. تقول الرسالة: «. . . أطلقنا ست قذائف طوربيد وأصابت ثلاث منها سفينة حربية من طراز إيداهو ـ أغرقتها بلا ريب».

واحتفاءً بهذه الضربة العظيمة أمر هاشيموتو، وهو يشعر بحماس لا يشوبه سوى أدنى قدر من الشك، بأن تضاف إلى وجبة عشاء الطاقم التالية المكونة عادة من البصل الفاسد نوعاً ما الفاصولياء المعلبة ولحم البقر المملح المعلب وسمك الأنكليس المعلب.

استمتع الجميع بالوجبة باستثناء رجال الكايتن الذين فقدوا

شهيتهم وكانوا على استعداد تام، كما يبدو، للسماح للجرذان بأكل حصتهم، فقد كانوا تواقين لطعام السماء الذي يفترض أن يكون أشهى وألذ طعماً.

تم إغراق سفينة! ولكن أين رسالة الاستغاثة؟

أصابت الحيرة والارتباك رجال الكابتن لايتون Layton في مكتب الاستخبارات القتالية التابع لمكتب القائد العام في غوام. كان الوقت صبيحة يوم الاثنين الموافق 30 تموز / يوليو، وكان الرجال يتدارسون رسالة اعترضت من العدو وحُلت رموزها للتو. تفاخر قائد الغواصة اليابانية 58 - I، بأنه أغرق سفينة ـ ولكن ما نوع السفينة؟ ماذا كان خط العرض وخط الطول لدى إغراقها؟ نجح الأمريكيون في حل الرموز اليابانية ولكن للأسف لم ينجحوا في حل الشبكات التي تعكس هذه الحقائق بالذات.

لم تبد الغواصة 58 - I، هامة جداً للخبراء في غوام ـ وإن كانت ملفاتهم تشير إلى أن هذه الغواصة كانت تتربص في المنطقة العامة التي كان يبحر فيها الطراد إنديانابولس. وبما أنه لم يبلغ عن وصول إشارة استغاثة، فلماذا إيلاء اهتمام خاص لهذه الرسالة اليابانية، لا سيما أنهم كانوا مثقلين للغاية بتقارير العدو؟

كان يوماً حافلاً بالحركة، فقد تم استلام ما لا يقل عن خمسمئة تقرير، ولم يكن هناك سوى ثمانية أشخاص لتحليلها وتقييمها. أصابهم الدوار من جراء قراءة جميع الأنشطة المجيدة التي كان يعلنها

قادة الغواصات الذين كانوا كالعادة يحاولون التملق كسباً لرضا رؤسائهم ولتضليل شعبهم من خلال المبالغة بشأن نجاحاتهم، وأحياناً تلفيقها. ويبدو أنهم كانوا يريدون أيضاً إرباك القوات الأمريكية ومعرفة مواقع السفن المفترض أنها أغرقت وذلك لتحريض واشنطن على «إثبات» عكس ذلك.

قد يفكر المرء أن كل واحد من هؤلاء القادة قد أغرق سفينة حربية ـ أو طراداً على الأقل. ولم يصدق رجال لايتون أياً من هذه التقارير حتى إن لايتون نفسه كان متشكّكاً على نحو مماثل.

كان التقرير بشأن الغواصة 58 - I، من الغموض بمكان بحيث لا يمكن التصرف بموجبه على أي حال. وبالطبع، سيتم إبلاغه روتينياً في الوقت المناسب إلى العميد كارتر Carter، مساعد رئيس أركان الأميرال نيمتز لشؤون العمليات في غوام والكابتن سمدبرغ Smedberg، مساعد رئيس الاستخبارات البحرية الأميرال كنغ في واشنطن.

وأخيراً وصلت الرسالة إلى سمدبرغ بعد زهاء عشر ساعات من اعتراض رجال لايتون لها. وفي واقع الأمر، كان مكتب سمدبرغ قد تسلم نفس الرسالة من محطة اعتراض أخرى وكان يقوم بترجمتها. ولكن الرسالة في واشنطن، كما هو الحال في غوام، لم تترك على ما يبدو انطباعاً باللغة الإنكليزية أكثر مما هي باللغة اليابانية ـ رغم أنه كان بإمكان سمدبرغ، شأنه شأن كارتر، أن يتفحص معلوماته ويحدّد

فعلياً المكان المحتمل لوجود السفينتين في أي وقت معين. ولكن ما من أحد قام بالتحقيق أو أمر باتخاذ أي إجراء.

وهكذا، وعلى أقل تقدير في الليلة المرعبة الأولى، سيحيا ويموت الكابتن مكفاي والناجون الآخرون في المحيط الذي يعج بسمك القرش حتى دون أن يعلم أحد بفقدانهم.

obeikandl.com